كنتُ ملحداً..

سيرة العالم الأمريكي جيفري لانغ

د. مصطفى عطية جمعة

كنتُ ملحداً

❖ اسم العمل: كنت ملحدا (قصة للفتيان)
❖ الكاتب: د. مصطفى عطية جمعة
❖ إخراج داخلي: سليل الفراعنــة
❖ تصميم الغلاف: عبير فاروق & أمل رضوان
❖ رقم الإيداع: 4995 /2024
❖ الترقيم الدولي: 978-977-87274-9-4

(جميع الحقوق محفوظة للناشر وأي انتهاك سيعرض صاحبه للمساءلة القانونية
هذه النسخة مخصصة للقراءة فقط، ولا يجوز إعادة طبعها أو نسخها أو نشرها إلا بعد
الحصول على إذن كتابي من الناشر)

متون المثقف
للنشر والتوزيع

خالد عدلي
00201002688188
info.mothakf@gmail.com

(قصة للفتيان)

كنتُ ملحداً

سيرة العالِم الأمريكي جيفري لانغ

د. مصطفى عطية جمعة

متون المثقف
للنشر والتوزيع

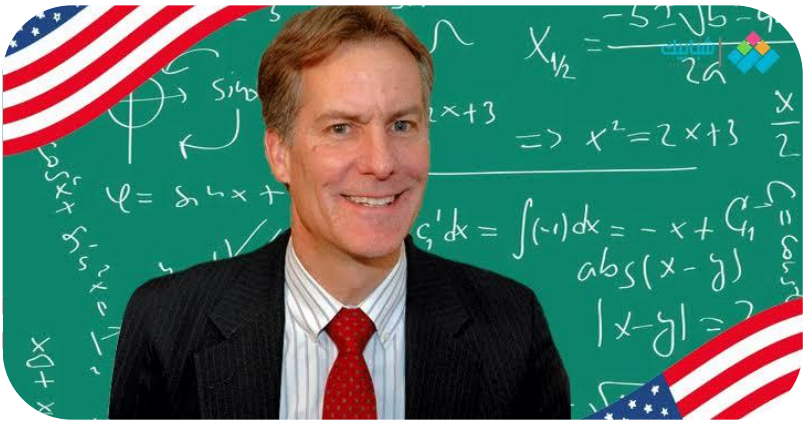

جيفري لانج Jeffrey Lang، **ولد في ٣٠ يناير ١٩٥٤**

بروفيسور أمريكي في الرياضيات في جامعة كنساس

- نعم.. كنت ملحدا؟

هكذا قلت لابنتي الصغيرة، عندما سألتني قائلة:

- لماذا أسلمتَ يا أبي؟

تطلعت إلى ابنتي "فاتن"، وأنا أتأمل عيونها الصافية، ووجهها الذي ينضح براءةً وصفاءً، ونظرتها المتطلعة نحوي، تنتظر إجابتي عن سؤالها، سكتُ، وأنا أستحضر ملامح أختيها: "جميلة"، و"سارة"، ما أسرع السنوات التي مرّت بي! وما أكثر ما رأيت في حياتي من تغيرات! وما أجمل ما توصلت إليه نفسي بعد تقلبات!

تفرست في وجه صغيرتي "فاتن"، التي حملت ملامح شمال أوروبية، تشير إلى أجدادي المهاجرين الأوائل، الذين وفدوا إلى الأرض الأمريكية قبل أكثر من قرنين من الزمان، عندما عبرت عائلاتهم المحيط الأطلسي في سفن خشبية، قادمين في جماعات إلى قارة أمريكا الجديدة، باحثين عن حياة رغدة في أرض مترعة بالخيرات.

تكرر ابنتي سؤالها، وتنبهني من شرودي:

- لماذا أسلمتَ يا أبي؟

أبتسم لها، وأحتضنها، وأداعب شعرها البنيّ الذهبي الغزير، وأتحسس وجهها الأشقر، هي وشقيقتاها متشابهات، وكما اعتدت أن ألقّبهن بالتوائم الثلاثة. وأتفرس في عيني فاتن الواسعتين اللتين حملتا لونا بنيًّا داكنا، مع لمعان دال على توقّد عقلها.

تذكّرني عيناها بالفتيات المسلمات اللائي قابلتُهن خلال رحلاتي للحج أو العمرة، وكنت معجبا بحشمتهن، والحياء الذي يكسو وجوههن، وهن يتحدثن للمرة الأولى معي، ويتأملن بشرتي الشقراء، بوصفي مواطنا أمريكيا، لم يتوقعوا أن يكون مسلما.

- يا فاتن.. لم يأتِ إسلامي إلا بعد رحلة شك وإلحاد.
- ولماذا شككت يا أبي؟
- شككت لكي أصل إلى الإيمان، ثم هداني الله سبحانه.
- كيف يكون الشك سبيلا للإيمان؟
- عندما يكون بحثا عن الخلاص، ورغبةً في الإيمان الحقيقي.
- أريد سماع قصتك يا أبي.

احتضنتُ ابنتي، وأنا أهمس لها:

- قصتي طويلة، سأرويها حتما، بل يجب أن أرويها كاملة، متى بدأتُ، وكيف تحولتُ، وإلى أي شيء صرتُ .سأدوّنها

من أجلكِ أنت وشقيقتيك، لتعرفا كيف كانت حياة والدكن.

قبّلتني ابنتي، ضاحكة:

- ولكنني لن أنتظر حتى تنتهي منها يا أبي.
- وماذا تريدين يا صغيرتي؟
- أن أقرأ أولاً بأول كلَّ ما تكتبه.
- موافق على طلبكِ..، يا لكِ من بنوتة شقية وذكية، سآخذ بيدك لتعرفي مسار حياتي.

❊ ❊ ❊

ذكّرني سؤالُ ابنتي فاتن، بسؤالي لأبي عندما كنتُ في مثل سنها:

- لماذا أنت كاثوليكي يا أبي؟

اندهش أبي من سؤالي، ونظر إليّ متعجبا، وانتظرت الجواب منه، فقال لي:

- ولماذا هذا السؤال؟
- أريد أن أعرف.
- لقد ولُدتُ كاثوليكيا، وهذا مذهب آبائي وأجدادي، وعليك أن تكون مثلي.

لم تقنعني إجابة أبي، فلم يكن استفساري بدافع الفضول، وإنما أردتُ فهمَ نفسي جيدا، وما يجب الإيمان به، ولماذا نؤمن بهذا أو ذاك، لا أريد أن أكون تابعا لما يؤمن به أبي، وإنما أردت الإيمان عن اقتناع وفهم، وللأسف لم يشفِ أبي غليلي.

❊ ❊ ❊

سأحكي حتما عن فترة إلحادي، ولكن لابد أن تعرفن يا بناتي الثلاث الجميلات، أنني آمنتُ بالإسلام ليس لي فقط، وإنما من أجلكن أنتن أيضا، كي لا تسقطن في الحيرة والاضطراب النفسي الذي سقطتُ أنا فيه، وتكون حياتكن ثم مستقبلكن مع

أبنائكن وأزواجكن هنيئا سعيدا، بعدما اطّمأننتم على أن قلوبكن مؤمنة بالله الواحد الأحد، الفرد الصمد.

أقول ذلك، وأنا أتذكر مقولة محمد (صلى الله عليه وسلم) عن ابنته فاطمة، عندما قال: "فاطمة بضعة مني، فمَن أغضبها أغضبني"، فقد عرفتُ منذ هذه المقولة، وتيقنتُ عظم مكانة البنت عند أبيها، حيث أجد طمأنينة خاصة في علاقاتي مع بناتي، فقد اكتشفت أنهن يفتحن عالما من المشاعر والأحاسيس أكثر مما تسمح به الحياة العادية.

إنني وأنا الأب أرى في ذريتي (بناتي) أنهن يكملن شخصيتي، بل هن امتداد لي، بل إنني أتعلم منهن الكثير؛ كيف ينظرن للحياة، وكيف ينظرن لأبيهن، وكيف ينظرن للمستقبل.

(١)

ها هو الزمن يعود بي، عقودا إلى الوراء، عندما كانت أسرتي تعيش في مدينة بريدجبورت الصغيرة، جنوبي ولاية كونّيكتيكت Connecticut، في العام ١٩٧٠. كنت فتىً مراهقا في سن السابعة عشرة، منتظما كطالب عادي في مدرسة نوتردام الثانوية، عاشقا لدراستي العلمية، ناظرا للمستقبل بكل أمل، أحلامي بحجم السماء.

ها أنا الآن، أتطلع إلى صوري القديمة في ألبومي الخاص، تبدو الوسامة على وجهي، وفي أناقة ملابسي، بجانب كوني طالبا فائقا في دروسي، عاشق للرياضيات والفيزياء، أحلم أن أكون عالما يوما ما.

ولكنني وفي المقابل كنت كثير التساؤل، محبا للمناقشة العميقة لكل معلومة تُذكَر أمامي، وكان أساتذتي في المدرسة يعرفون عني ذلك، ويعرفون أنني كاثوليكي، تم تعميدي في الكنيسة، وأنتمي إلى أسرة كاثوليكية حريصة على الذهاب إلى الكنيسة في أيام الآحاد،

بل كان كل أصدقائي وجيراني وأقاربي من الكاثوليك، وأصادق أيضا عددا من الشباب اليهودي.

أقلّب في الألبوم، ذكريات زمن ولّى منذ خمسة عقود أو أكثر، موضة الملابس مختلفة: البنطالات واسعة الأرجل، والقمصان ملتصقة بالصدر والبطن، وشعري طويل غزير، منسدل على جبهتي، وعيناي خضراوان، وتقاطيع وجهي حادة، تعبر عن فورة الشباب والحماسة التي كانت تعتمل في أعماقي.

❊❊❊

إنها سنتي النهائية في المدرسة الثانوية، شهور قليلة وألتحق بالجامعة، محققا أحلامي بدراسة الرياضيات، ثم أواصل دراساتي

العليا بعدها. لقد خططت لمستقبلي جيدا، محددا محطات حياتي القادمة. ثم كان الموقف الذي غيّر ذاتي مئة وثمانين درجة، وقلب تفكيري، بل وأربكني في كل تصورات حياتي.

إنه معلم التربية الدينية، الذي هو كاهن في الكنيسة أيضا، وكان متمرسا حقا في النقاش الديني المعمق. لقد فاجأنا هذا المعلم يوما في حصته الدراسية، عندما قرر إقناعنا بوجود الله بالفعل في حياتنا. فبدأ يناقشنا عن الأسباب الأولى للوجود والكون. وأن هذا الكون لابد فيه من وجود إله خالق، فلا يمكن أن تكون السموات والأرض بلا رب، فلابد أن نؤمن بوجود الله لأن الكون يثبت ذلك بالفعل.

انتبهت لكلامه، وركّزت فيه، واكتشفت أن إيماني بالله لا يتعدى ما تعلمته من قبل في الكنيسة أو في حصص التربية الدينية. ولكن هذا المعلم يطرح وجود الله من خلال النقاش الفكري. ولأنني بارع في الرياضيات، وبارع أيضا في المنطق الرياضي، فقد وجدت نفسي أرفع يدي طالبا الحديث، فأذِنَ لي المعلم، فقلت:

- إن ما ذكرتَه عن أسباب وجود الله غير كاف يا أستاذ.
- لماذا يا جيفري؟
- لأنك شرحتَها من الناحية الدينية، وقلت إن الكون حولنا يتطلب وجود الرب الذي هو الكائن الأسمى كما ذكرت يا أستاذ، ويجعلنا نعرف الخطأ والصواب، والخطيئة والصلاح، وغير ذلك.
- لم أفهم جيدا يا جيفري، أوضحْ.
- يا أستاذي أريد أن تبرهن لي من خلال العلم على وجود الله، ولا تقل لي كلاما دينيا فقط، لأنني مقتنع أن العلم يمكنه إثبات وجود الرب أو عدم وجوده.

قلتُ هذا بثقة، ووجدتُ زملائي في الفصل يتطلعون إليّ مذهولين، فلم يعتادوا أن يروني مجادلا في الأمور الدينية بمثل هكذا طريقة.

عاد الأستاذ مجددا للحوار:

- لقد أوضحتُ يا جيفري أن هذا الكون لا يمكن وجوده بالصدفة، ولا بد من إله خالق.

- أرى يا أستاذ أن معلومات الأديان تتخبط، بينما العلم يتقدم بشكل ثابت ومنظم مبني على الأدلة غير القابلة للشك.
- يا جيفري، الإيمان بالله متجذر في النفس البشرية.
- هذا عند الجهلاء والبسطاء؛ فوجود الله في قلوبهم بسبب الخوف من عقابه، والجهل بالعلم الحديث، أما عند العلماء فإن كل شيء لابد أن يكون له أدلة تقنع العقل.
- إلى أي شيء تريد أن تصل يا جيفري في النهاية؟
- أنا لم أقتنع بكل ما قلتَه يا أستاذ؛ عن وجود الله حسب ما يقوله علماء اللاهوت، أعطوني أدلة علمية ثابتة غير قابلة للشك.

***

لم أتوقع تلك النتيجة التي أحدثها حواري مع الأستاذ الكاهن، فقد التفّ حولي عدد من زملائي في الصف، وأيّدوا كلامي، وعقدنا عدة جلسات للنقاش في الساحة المدرسية، وأيضا عندما

كنّا عائدين لبيوتنا بعد نهاية اليوم المدرسي، حيث تكون الحديقة العامة القريبة من مدرستنا مكانا نجتمع فيه.

الغريب أنني قرأت كثيرا في هذا المجال، وللأسف قرأت في فلسفات الإلحاد، ويا لها من فلسفات جعلت من نفسي ملكا عالي الفكر والمقام، كيف لا؟ وأنا أكتشف أن العلم بالفعل يجيب عن كل الأسئلة، وأنه بصدد الكشف عن كل شيء حولنا، فلم يعد اللجوء إلى الأدعية والصلوات أملا في طلب الشفاء، وإنما يكون التشخيص الطبي الدقيق، والعلاج الفاعل. ولا فائدة من تخيل ما فوق السماوات، فإن مركبات الفضاء تغزو أعماق السماء، وتحوم حول الكواكب، وترى النجوم عن قرب، إن العلم يعطينا ملايين الأدلة على عظمة عقل الإنسان. هذا العقل، الذي يحتاج فقط إلى المزيد من المعامل والأجهزة ليصل لكل مجهول.

***

ضاق الأستاذ الكاهن بجدالي أنا وزملائي المؤيدين لي في كل حصة، فقد كنّا نتنافس في استحضار الجديد من التساؤلات المشككة عن وجود الله علميا، وكلها مأخوذة من فلسفات الإلحاد.

بات الأستاذ في حيرة، غير قادر على تفنيد حججنا، عاجزا عن الرد على أسئلتنا التي لا تنتهي، وكان إذا قدّم إجابة، كنا نتبارى أنا وزملائي في تفنيدها، وطرح أسئلة مضادة لها، تُظهر وهن حجة الأستاذ.

عقب إحدى الحصص، ناداني الكاهن، أنا وزملائي، وقال بحزم:

- أنتم تضيعون أوقات الحصة في الجدال، وأنا أقول لكم كلمة واحدة، إما أن يعتدل فكركم، وتنصلح قلوبكم؛ أو أنكم سترسبون في المادة.

تبادلنا النظرات، لا مجال للتراجع، لا يمكن أن نؤمن بأفكار غير مقنعة، أطبق الصمت علينا، بعدما أعطانا الكاهن ظهره مغادرا، أما نحن فقد لمعت أعيننا رفضا وتصميما، موقنون أننا على حق، وإلا فليقنعنا الكاهن بما عنده علميا.

***

- سأرسب في مقرر التربية الدينية.

قلتُ هذا، وأنا أجلس على طاولة العشاء مع أسرتي، لقد حاولتُ كتمان الخبر في صدري لمدة ست ليالٍ متتالية، حتى توصلت إلى أن المصارحة أفضل من الإخفاء. وما إن ألقيتُ الخبر عليهم، حتى صُعِقتْ أمي، وغضب والدي بشدة، وصرخ فيّ:

- كيف لا يمكنك أن تؤمن بالله؟!

آثرتُ الصمت، مفكرا كيف يمكنني إقناعهما بما في نفسي، فوجدت أبي يقول:

- سوف يذلك الله يا جيفري، ولسوف يخزيك إلى درجةٍ تتمنى فيها أنك لم تخلق أبدا.

لقد أصبحتُ ملحدًا في نظر العائلة والأصدقاء، وبقية زملائي في الصف، حاولت مرارا أن أقول لهم: إنني مؤمن بالله، ولكنني غير مقتنع بالبراهين التي يقدمونها في الدروس الدينية، ولكن الشيء الثابت في حياتي أن لقبي الجديد في الأسرة والمدرسة هو الملحد، ثم أدركت أنني بالفعل غير مؤمن، وأن الظنون تملأ قلبي.

في الأسابيع التالية، كان سؤال وجود الله مسيطرا على تفكيري، خاصة أن العصر الذي كنت أعيش فيه سنوات السبعينيات من القرن العشرين يُسمَّى عصر الشك. وهو ما وعاه جيلي، فراح يشكك في كل المؤسسات والكيانات والأعراف والمسلَّمات، وأقوى شكوكنا كانت ضد الكنيسة نفسها، وفيما تقوله عن الله والإنسان والآخرة.

لقد كنت أطالع التلفاز بشكل دائم، وأشاهد المشكلات العرقية التي تعصف بوطني أمريكا، من قبل جماعات السود، وكيف أنهم يهاجمون الممتلكات وينهبونها وقد يقتلون كل أبيض يصادفهم. كنت أشاهد الضحايا كل مساء على شاشة التلفاز. وأرى في المقابل، كيف كانت السلطات الأمريكية تعاملهم بقسوة وعنف، مما يولّد عنفا أشد وأكثر دموية من قبل أنصار زعماء السود. بدأت الأزمة مع التعصب العنصري من قبل الرجل الأبيض، واحتقاره للزنوج والملونين، وكنت أتساءل في نفسي: هل يملك الواحد منا أن يغير لون بشرته، أو يختار أصله أبيض كان أم أسود؟ لماذا نتقاتل على ما لا نفعله بأيدينا، فلم نختر آباءنا ولا أشكالنا؟

إنه إرث الدم بين البشر، ولا زلت أتذكر عندما كنت في المرحلة الابتدائية، أطفالا صغارا، البراءة في قلوبنا وملامحنا، ومع ذلك، كان يحذروننا من حروب نووية، يمكن أن تتم، من قبل القوى المعادية للولايات المتحدة، وكانوا يعنون ساعتها الاتحاد السوفيتي وحلف وارسو، وأنها يمكن أن تنشب في أية لحظة، وقد يموت الملايين بسبب أسلحة الدمار الشامل، والصواريخ التي ستتلاحق على حضارتنا.

❊❊❊

كان المعلمون يدربوننا في مدرستي الابتدائية على كيفية التصرف في حالة سقوط قنابل نووية. يتوجب علينا ساعتها الفرار هربا من الغبار النووي إلى الملجأ تحت الأرض، الذي هو قبو طويل، وسنجد في القبو كل ما نحتاج إليه من أطعمة وماء وأغطية وأسرة، حتى تنقضي الغارات، وساعتها سنكون محظوظين لأننا ناجون.

وها أنا الآن في المرحلة الثانوية، أكتشف أن أبطالنا الطيبين الحقيقيين مثل الأخوان كينيدي، والزعيم مارتن لوثر كينغ، تم اغتيالهم، ثم ظهر أبطال آخرون، فوجدنا هناك من يتآمر عليهم، فهربوا من أمريكا إلى المنفى أو تعرضوا للإهانة والإذلال من قبل السلطة. الشعور الذي كان يعتمل في نفسي، والذي رأيته سببا أساسيا في إلحادي هو هذا الرعب الذي يعتمل في نفسي، وهذا الخوف الشديد؛ أن هناك شخصا ما سوف يؤذيني، وهناك رعب من مجهول، لا أعرف ما هو.

كان السؤال المثير لحيرتي: كيف خلق الله هذه الدنيا بكل ما فيها من مظالم، ثم يأتي بعد ذلك ليعاقبنا جميعا، نحن المخطئين المذنبين عدا عدد قليل هم المؤمنون حقا؟ كيف يستقيم ذلك مع العدالة الإلهية المطلقة التي ينادون بها؟

الأفضل في هذه الحالة ألا نؤمن بالله مطلقا، ولا نفترض وجوده، ونسعى نحن الملحدين إلى حلول لمشكلات هذه الدنيا التي نعيش فيها. وهكذا، أصبحت ملحدا في سن الثامنة عشرة من عمري، وتغيرت نظرتي لنفسي والحياة.

ماذا كان شعوري عندما تحررت من الإيمان بالله؟ أعود بالذاكرة إلى هذه الفترة من حياتي، شابا مقبلا على الحياة، ينظر للمستقبل، متحررا من الخوف من العقاب الأخروي الذي ينتظره في حالة الوفاة.

الآن، لا أحد يستطيع العبث بأفكاري، ولا السيطرة عليّ مدعيًّا أنه كاهن أو قس، ممثلاً لسلطة أو مؤسسة دينية. ولن أقلق من أجل إرضاء أية قوة فوق بشرية، تكون في السماء، بل إنني فخور لأنني أملك زمام نفسي، وأتحمل مسؤولية وجودي وحدي. أشعر

أن رغباتي طوع نفسي، أنا أملك ذاتي، وأمتلك عالمي، أنا الذي أقرر ما هو الخير، وما هو الشر، وما هو الصواب وما هو الخطأ، إنني أصبحت إله نفسي ومنقذها، ومسيّرها، ومتخذ القرار فيها.

أعلم أن هناك ملحدين انحرفوا أخلاقيا، فمارسوا كل سلوك قبيح، وصاروا بشرا جشعين، لا يهمهم في الدنيا إلا المال والمنفعة والتمتع بكل ما تشتهيه أنفسهم، ولكنني لم أنحرف، ولم أكن جشعا، بل على العكس من هذا، كنت محبا للإنسانية، مسارعا في فعل كل ما هو خيري، وفي رعاية كل محتاج، ولكن ليس بهدف الحصول على الثواب الأخروي، بل لأنني إنسان طيب. نعم أنا إنسان طيب في أعماقي، لستُ مثل الملحدين الأشرار، الذين يؤذون الناس بكل طمأنينة، لأنهم واثقون أن لا عقاب ينتظرهم في الآخرة.

أما أنا، فكنت أرى الحب بوصفه أسمى المشاعر الإنسانية؛ أحب الناس جميعا، أحب الخير لهم، أحب خدمتهم، لا أتأخر عن مساعدة أي واحد منهم. اكتشفت أنني عندما أمنح الحب للناس، فإنني أتلقى الخير في المقابل.

إذن هل كنت ملحدا تمام الإلحاد؟ نعم، ولا.

نعم ملحد، مقتنع أن لا إله موجود، ولا، لأن كل الملحدين الذي عرفتهم عن قرب أو قرأت لهم، كانوا شديدي الأنانية، والنفعية، والانتهازية، والقسوة، وأيضا كانوا تعساء في حياتهم، وكثير منهم ماتوا منتحرين. أما أنا، فأنا أحب الناس وفعل الخير.

❋❋❋

كانت المفارقة أنني وجدت نفسي ناجحا في مقرر التربية الدينية، لأنني ببساطة أجبتُ عن الأسئلة الواردة في المقرر الدراسي، بعدما درستُ المادة جيدا، وحفظت نصوصها، وامتنعت عن مجادلة الأساتذة الكهنة فيها.

وبذلك، أنهيت المرحلة الثانوية بتفوق كبير، وتأهّبت لدخول الجامعة، بما يعني أنني سأغادر مدينتي الصغيرة، وأنتقل إلى عاصمة الولاية، لأدرس في جامعة كونيكتيكت، وسأحقق حلمي بدراسة الرياضيات، لأكون عالما كما خططتُ لنفسي.

❋❋❋

كالمعتاد نمت ليلتي، بعد يوم حافل بالنشاط والحركة، ولم أتوقع أن يتكرر الحلم الذي رأيته منذ سنوات، ولم أهتم به، ولكن هذه الليلة كان مذاقه مختلفا. لقد كانت المرة الأولى التي رأيته فيه، عندما تم إقصائي من دروس التربية الدينية.

حلمتُ أنني في غرفة صغيرة، تخلو من الأثاث، تغطي أرضيتها كلها سجادةٌ نموذجية، ألوانها الأساسية الأبيض والأحمر، ولم يكن هناك شيء من الزينة على جدران الغرفة ذات الألوان الرمادية الممتزجة بالأبيض. فقط، ثمة نافذة مواجهة لي، أشبه بالنوافذ التي توجد في القبو أو الملجأ، ولكن ينبعث من النافذة ضوء ساطع يغمر الغرفة كلها، ويغمر ذاتي أيضا.

أشعر بالراحة. أتطلع لمَن حولي في الغرفة، فأجد بشرا، متراصين في صفوف متتالية، وأنا في الصف الثالث بينهم، المتواجدون كلهم رجال، ولا نساء بيننا. نتحرك جميعا حركة منتظمة، صعودا وهبوطا، ركوعا، وسجودا، فنلصق وجوهنا بالأرض، ونقتدي في هذه الحركة برجل في مقدمة الصفوف، في الوسط، تحت النافذة تماما، كان يقف بمفرده، وألمح على نحو بسيط ظهره. يرتدي عباءة بيضاء طويلة، وعلى رأسه طاقية بيضاء عليها رسم أحمر. تتكرر الحركة مرارا، ثم نجلس في النهاية على الأرض.

أشعر براحة كبرى، فالضوء نافذ لأعماق فؤادي، على الرغم من أن لساني ناطق بألفاظ لا أعرف معناها. استيقظت من النوم سعيدا، وكلما تذكرت تفاصيل الحلم الذي يستغرق مني دقيقتين أو ثلاثة؛ أجد شعورا لطيفا أقرب إلى الغبطة يملأ كل كياني.

الغريب أن الحلم ظل يتكرر معي بعد ذلك مدة عشر سنوات، بنفس تفاصيله، صحيح أن المشهد غير واضح، فالوجوه غائمة، والملامح ضبابية، ولكنه يتكرر بنفس الكيفية، بل صرت أنتظره، وأترقبه كل فينة وأخرى، مشتاق إلى الراحة التي أستشعرها عندما أستيقظ.

واثق أن هذا الحلم له دلالة دينية ما، ولكنها غامضة...

وحاولت مرارا معرفة كنه الغرفة التي كان فيها الحلم، وبحثت عن شبيه لها في مختلف الأمكنة، والأبنية، والبلدان التي زرتها، وطيلة عشر سنوات، فلم أعثر عليها، مثلما لم أدرك مَن هم هؤلاء الذين كانوا معي في الحلم، وجوههم تنطق سعادة، وعيونهم تشعّ صفاء، ورائحتهم نقاء، وملابسهم بيضاء.

❊ ❊ ❊

(٢)

الأيام الأولى في الجامعة، جامعة كونيكتيكت، طالبا كنت في قسم الرياضيات، التجربة جديدة عليّ تماما، فهي المرة الأولى التي أعيش فيها بعيدا عن أسرتي، عن أبي وأمي وإخوتي، عن المنزل الذي شهد مولدي، وطفولتي وصباي، وعن غرفتي الخاصة التي كانت عالمي ومملكتي وفيها مكتبتي. والآن في غرفتي الجديدة بالمدينة الجامعية، أعيش فيها بمفردي، مثل كل زملائي وزميلاتي، نعود من كلياتنا في جامعاتنا، فينتهي بنا الليل وحيدين فرادى، كلٌ عاكف على كتبه، ومذاكرته.

ولكنني أراها فرصة جيدة لي، لكي أمارس استقلاليتي الذاتية، بعيدا عن التبعية في المعيشة أو السكن أو التقاليد. أمتلك الآن زماني ومكاني، فصرت بمأمن لكي أختبر آرائي، وأفكر كيف سارت حياتي من قبل، وكيف ستسير من بعد.

(صورة جامعة كونيكتيكت)

❊ ❊ ❊

شهور قليلة، واكتشفت الأزمة التي سببتُها لنفسي، وتلك أولى حصيلة مراجعاتي. ولم تكن ناتجة عن قراءة أو بحث، وإنما عن معايشة الذات وجها لوجه، بين جدران الغرفة الصمّاء، والتطلع من نافذتها إلى فناء المدينة الجامعية ليلا، حيث الظلام يخيّم عليه، وضوء النجوم واهنا، غير قادر على تبديد كتل سواد الليل.

أدركت ساعتها أزمة الملحد، فلا أحد يعرف الوحدة إلا هو، فالشخص المؤمن بالله يمكنه مناجاة ربه، من خلال أعماق روحه، يمكنه أن يصلي، يمكنه أن يدعو بما في نفسه، ويفضي بكل ما يقلقه، ويكون بمقدوره الشعور بالاستجابة، حتى لو لم تكن حادثة بالفعل. في حين أن الملحد محروم من هذه النعمة، فلا رب يناجيه، بل يتوجب على الملحد السخرية من هذا الدافع، ويجب أن يمنع نفسه من هذا السخف، فالملح له إلهه الخاص، وله عالمه الصغير جدا، وحدود هذا العالم عند الملحد لا تتجاوز عقله الضيق، بل هي حدود متناقصة دوما، كلما تقدم به السن، وضعفت ذاكرته، وغابت عنه أشياء كثيرة، بالفعل فإن عقلنا قاصر، وخاضع لشهواتنا ونقص معلوماتنا.

أما قيم الرحمة والعدالة والمحبة فهي تتحول وتتبدل حسب ميول الملحد وأهوائه ونزواته، وهذا ما شعرتُ به، فموقفي من القيم الإنسانية الجميلة يتأثر بحالتي النفسية، فأكون طيبا مع من أرضى عنه، ومتحفزا ضد من يغضبني.

صار لا يشغلني إلا الحفاظ على وحدة نفسيتي واتزانها، ولذا كنت في عزلة دائما، حتى لا يتعكر مزاجي عندما يجادلني أحد المؤمنين، أو أقابل شخصا أكرهه، أو لا يُقدّر شخص عظمة شخصيتي وأفكاري.

كنت أخاف من الموت، ليس خوفا من الحساب الأخروي، وإنما لأنه هو الفناء التام، فلابد أن أبحث عن الخلود، ولا سبيل أمامي إلا بالتفوق العلمي، وأيضا الزواج، حتى يكون عندي أولاد، لعل ذكري يمتد في الدنيا.

ولم أفكر فيما بعد الموت، لأنني واثق أن لا شيء هناك، ومن الوهم تصور الثواب والحساب، والجنة والعذاب.. هذا كدٌّ للذهن، لا فائدة منه.

وهكذا مرّت بي سنوات الجامعة الأربع، حبيسا بين كتبي المقررة، وجدران غرفتي المُقبِضة، وذاتي المتقلبة، ولكن الشيء الوحيد الذي كان يستغرقني، هو حبي للعلم، وانكبابي على طلب المزيد منه، فدوما كنت من الفائقين على دفعتي.

❊❊❊

قابلتها، إنها زوجتي الأولى، التي أحبّتني بشدة، كانت تملك أحلاما عظيمة مثل أحلامي، قررت ساعتها الزواج لأنجب أطفالا، يكونون امتدادا لي في عالمنا، بعد فنائي بالموت، سيحملون اسمي، وسأؤلف كتبا تحمل اسمي أيضا، وبذلك يتحقق الخلود لي في الدنيا: بالعلم والأولاد.

هكذا، توصل عقلي القاصر، وعندما تحاورتُ معها بشأن الزواج، وافقتْ هي على الفور، خاصة أنني قد أنهيت سنوات الجامعة، وأتأهب الآن للدراسات العليا.

وكالعادة، أردت أن أحافظ على عزلتي الخاصة، التي توهمت أنها مملكتي فقلت لها، ونحن ذاهبان لتوثيق عقد الزواج في المحكمة المدنية:

- ما رأيكِ أن يكون زواجنا ليس التزاما دائما بيننا؟
- كيف هذا يا جيفري؟ لم أفهم.
- بمعنى، يمكننا أن ننفصل في حالة إذا وجد أحدنا فرصة أفضل في الحياة.

قالت مندهشة:

- جيفري، سيكون زواجنا بهذا الشكل مصلحة، وكأنه شركة، وليس ارتباطا بين زوجين.

قلتُ وأنا أطمئنها:

- أبدا، نحن نحب بعضنا، ولكنني أنظرُ بشكل عملي للمستقبل، إذا أحسستِ أنك غير سعيدة معي، فيمكنك أن تطلبي الطلاق، وأنا لن أعترض على ذلك.

أومأت الفتاة برأسها موافقة، وقد أحسستُ أنها غير مقتنعة تماما بما قلتُه لها، ولكن يبدو أنها متيمة بي، وواثقة أنني لن أتخلى عنها.

وهكذا، تم زواجنا، وكان علينا تجهيز حقائبنا للسفر إلى جامعة أخرى، سأسافر هذه المرة مع زوجتي، ولن أكون وحيدا في حياتي، سنذاكر معا، ونتفوق معا.

❊ ❊ ❊

(صورة جامعة بوردو)

وصلنا إلى جامعة بوردو Purdue University، في ولاية مدينة لافاييت الغربية West Lafayetteبولاية إنديانا الأمريكية. كانت بالفعل زوجة رائعة، ومخلصة لي، ولكني اكتشفتُ أن الإلحاد لم يجعل في قلبي متسعا لغير نفسي. تلك هي الحقيقة المرة، فقد أعطتني زوجتي كل عواطفها، ولكنها لم تجد عندي إلا علاقة باردة، تخلو من العاطفة، وعندما كانت تصارحني بهذا، كنت أخدعها بالكلام، وأنني مشغول بالدراسة، ولكنني علمت أن الملحد إلهه نفسه، يتعبد لها فقط، وعلاقته بالناس علاقة نفعية. وأنني أردت الزواج حتى أحقق الخلود بإنجاب أطفال.

وهكذا مرت سنوات ثلاث، لم ننجب فيها، وقد اجتهدتْ هي لتغيّر من طبيعتي، وأنا غير قادر على التغيّر، حتى فاجأتني يوما قائلة:

– جيفري، لا فائدة من استمرار زواجنا.

لم يكن الخبر صادما، كنت متوقعا له بشكل أو بآخر، فقلت لها:

– لماذا؟

- أعطيتكَ الحب، فلم أجد منك إلا الصدّ.
- إنني مشغول بالدراسة.
- وأنا أيضا كنت مشغولة بالدراسة، ولكنني لم أقصر في واجبات الزوجية.
- أرجوكِ .. تمهلي..
- لقد فكّرتُ كثيرا، وها أنا الآن أذكّرك بما اتفقنا عليه.
- ماذا تقصدين؟
- أن نفترق عندما يجد أحدنا فرصة لحياة أفضل.
- أريد أطفالا يحملون اسمي.
- وأنا أريد أن أبتعد عنك لأبحث عن حياة جديدة، مع شخص يحبني، ولا يحب ذاته فقط، شخص يعرف أن الحب لابد أن يكون من الطرفين، وليس من طرف واحد.

❊❊❊

❊ ❊ ❊

عدتُ إلى وحدتي في شقتي الكائنة في أحد مباني الجامعة، إلى الجدران القاسية، والصمت الرهيب، ندمت على ما فعلته مع زوجتي، التي كانت طيبة راقية، ولكنني لم أكن أنا زوجا مثاليا. أدركت أنه من الصعب أن يكون إلهي هو ذاتي، وأن نفسي هي سجني الأبدي، وعدت إلى القلق والتوتر، الذي أهرب منهما في مذاكرتي.

❊ ❊ ❊

ثلاث سنوات مرت بي في هذه الجامعة، وأمامي عامان فقط للانتهاء من أطروحتي للدكتوراه. تمسكت بالأمل من جديد،

سأغرق في مراجعي، وأنهي رسالتي، ما أجمل اليوم الذي أكون فيه حاملا للقب دكتور، وأقف أمام الطلاب محاضرا في الجامعة، سأختال بنفسي أمامهم، وستكون هذه هي سعادتي.

يجب ألا تؤثر في نفسي أية إخفاقات، يمكنني أن أتزوج بامرأة أخرى، ويمكنني أن أنجب أطفالا في أي وقت، ولكن لابد أن يكون هذا بعد الدكتوراه.

❊❊❊

عندما جلستُ أمام اللجنة، كنت في غاية الحماسة، وأنا أدافع عن أطروحتي التي قدمتها لنيل الدكتوراه في فلسفة الرياضيات. استمع الأساتذة أعضاء اللجنة لمرافعتي الطويلة، وسألوني أسئلة كثيرة، وذكروا لي ملاحظات عديدة.

انتهت المناقشة، وها أنا الآن أقف أمام باب القاعة، واللجنة تجتمع داخلها، أنتظر بشغف النتيجة، كلها دقائق قليلة، وستكون السعادة، وأولى درجات الخلود لي.

القلق يستبد بنفسي، أستعيد ملاحظات اللجنة عن الأخطاء التي سقطتُ فيها. ولكن الذي أتيقن منه أنني عملت بشكل

دؤوب طيلة خمس سنوات، وها أنا أنتظر، بل أتقلب قلقا منتظرا قرار حصولي على الدكتوراه من أعضاء اللجنة، وكأنني على فوهة بركان، أنظر فقط للحاضر، غير قادر على النظر للمستقبل.

انفتح الباب فجأة، وخرج أحد الأساتذة بوجه عادي، ثم هتف بي:

– مبارك يا دكتور لانغ، لقد نجحتَ.

قفزتُ طائرا، ثم دخلتُ القاعة شاكرا أعضاء اللجنة، وعدت إلى شقتي معانقا السحاب، لقد تحقق حلمي، وهناك أطروحة في فلسفة الرياضيات تحمل اسمي، وسيتداولها الباحثون، ويقرأون اسمي عليها، صرتُ أغني، وأرقص.

وما إن وصلتُ شقتي، حتى وجدتُ مشاعري تتبدل، إلى سوداوية، بل وخيبة الأمل، والإحساس بالمرارة. واحترتُ، لا أعرف السبب، هل هي الوحدة؟ أم حالة الملل التي تلازمني دوما؟ أم ماذا؟ جلستُ في شرفة شقتي، أتطلع إلى ما هو خارجها، هربتُ من جدران الشقة إلى الهواء الطلق. لقد أدركتُ اليوم، والآن تحديدا، أن السعادة ليست في الإنجاز العلمي، وقطعا ليستْ في المال، ولا في الزواج. ورحتُ أتساءل: إذن أين السعادة؟ لقد توافر لي كل شيء: العلم، والمال من خلال راتبي في العمل في الجامعة، وأيضا مساعدة والدي المادية لي، والزواج من فتاة جميلة، قبل أن ننفصل، ثم الحصول على أرفع درجة علمية وهي الدكتوراه.

أشعرُ كأنني مثل الطفل الذي تشبث بلعبة، وأصرَّ على الحصول عليها، ولمّا اشتراها والده له، فرِحَ بها قليلا، ثم تركها بلا اكتراث، وراح يبحث عن أخرى.

أتذكر الآن طفولتي، واحتفالات أعياد الميلاد، وفرحتي الغامرة بها، ولكن عندما كبرتُ، أردتُ أن أحصل على نفس إحساس الفرحة التي شعرت به أيام طفولتي، فلبستُ ملابس جديدة،

وخرجتُ للشوارع في ليلة رأس السنة، وأطلقتُ الألعاب النارية، ورقصتُ وغنيتُ، ولكنني لم أشعر بمشاعر فرحتي في الطفولة.

يبدو أن حياتنا مثل إعلانات التلفاز، تجذبنا لها، وعندما نشتري ما نشاهده، سرعان ما نكتشف الزيف الذي فيه، قبل أن يجذبنا إعلان آخر.

وكانت الحقيقة التي توصلتُ إليها، أنني مثل الحيوانات، أو أن الإنسان نوع من الحيوانات التي تدبُ على الأرض، وتحاول أن تعيش، هذا هو كل ما في الحياة، نجاح مصطنع يليه نجاح آخر مصطنع، لا طعم للأول، ولا لما تلاه، وما أمنيات الإنسان إلا أشبه بمن غاص في البحر، وأراد اصطياد كل الأسماك فيه.

❊ ❊ ❊

كان شهر ديسمبر ١٩٨٠م، هو تاريخ حصولي على درجة الدكتوراه، وكان عليّ البقاء في الكلية، بجامعة لافييت الغربية، لمواصلة التدريس كمحاضر، قبل أن أفكر في الانتقال إلى جامعة أخرى، في فرصة عمل جديدة، براتب أكبر. فقررتُ البقاء، خاصة أن فصل الشتاء هنا شديد البرودة، والثلوج تتساقط بكثرة.

لقد فضّلتُ أن أظل في شقتي الجامعية، في عطلة نهاية الأسبوع، بينما غادر الطلاب والطالبات الجامعة لزيارة أهلهم، فتصبح المدينة الجامعية خاوية، ليس فيها نهارا أو ليلا إلا السكون التام. فآثرت أن أسير في شوارع المدينة الصغيرة، والتي ليس فيها إلا بعض مخازن البقالة، وعدد من المطاعم التي تقدم وجبات سريعة، وثلاثة محلات لغسل الملابس، واثنتان من دور السينما، وبعض الكنائس الصغيرة.

إنها أشبه بقرية صغيرة، وليست مدينة، لأن المزارع تحيط بها من كل الجوانب، ففضلتُ السير في الطرقات التي اكتست باللون الأبيض، بفعل تراكم الجليد عليها، استمتعت كثيرا، وأنا أسير

أميالا، وأخلو بنفسي، ما أجمل الطبيعة! وما أحلى استنشاق الهواء النقي! حتى لو كان في فصل الشتاء، وفي هذا العام تحديدا، كان الشتاء أبرد فصل مرّ علي في الجامعة.

ليس أمامي إلا التأمل، واستعادة أحداث حياتي، وقد مللتُ بالفعل من استعادتها، فقد صارت شريطا سمجا، ليس فيه إلا القلق والتوجس، وكلما تذكرتُ فرحةً، جاءتني عشرات من الذكريات السيئة.

قفزتْ أمام عيني هذه الفتاة الشابة، لقد نسيتُ مواقفها معي، على الرغم من حدوثه منذ أيام قليلة، ها هي الآن تمثل في خاطري، إنها مسلمة قطعا، ترتدي ملابس فضفاضة تغطيها من رأسها إلى قدميها، عدا وجهها، وكفّيها. حتما فإنها من الشرق الأوسط، حيث بلاد المسلمين، تمسّكت بحجاب المسلمات المعهود في بلادها. تحدّثتْ معي على استحياء، بعدما طرقتْ باب غرفة مكتبي في الجامعة، فأذنتُ لها بالدخول، كنتُ منكبا على أحد المراجع، استعدادا للمحاضرة القادمة لي، فلما رفعت عيني إليها، أخذتني ملامحها الهادئة، وسكينة عينيها.

- دكتور جيفري، أريد مساعدتك في الجانب النظري من رسالتي.
- أهلا بك.
- لقد أرشدني أستاذي لأذهب لك، وأتعلم منك.
- حسنا، يمكنني فعل ذلك.

تعرفتُ عليها، وأخذتُ منها خطة بحثها، وطلبتُ منها مهلة عدة أيام، حتى أدرس الورقة جيدا، ثم أناقشها في كيفية مساعدتها بعد ذلك.

جاءتني في الأيام التالية، وجلستُ معها مرتين، ناقشتُها تفصيلا في أطروحتها، وقدمتُ لها إرشادات كثيرة. انتبهتُ إلى اتزانها ووقارها، كيف لمثل هذه المسلمة أن تعيش مع سكان مدينة إنديانا، بأصولهم الجرمانية الأوروبية؟ والتعصب للجنس الأبيض.

كان في داخلها قوة روحية لطيفة، ووجهها ناضح بالجمال مع الحياء، أردتُ التعرف عليها بشكل أكبر، لقد غيّرتْ وجهة نظري عن المسلمين، ولكنها كانت متحفظة في التعامل معي، ولا ترفع عينيها إلا تأدبا في وجهي.

وكان عليّ البحث في الديانات الأخرى، ربما تتغير نظرتي لها، وهذا ما فعلتُه بالفعل في الآونة الأخيرة، حيث ذهبتُ إلى مكتبة الجامعة مرات، وشرعت في القراءة في الديانات الأخرى، الإسلام واليهودية ومذاهب المسيحية، لأكتشف أن المعتقدات الأساسية فيها متشابهة بشكل كبير، ولكن الاختلاف في الرموز وفي طقوس العبادات، وفي نظرتها إلى المعبود الخالق. اهتزّتْ نفسي من جديد، ووجدتُ أنه من الأفضل العودة إلى جذوري الدينية، لعل قلبي يستكين بعد حيرة.

- أريد الذهاب معكم إلى الكنيسة يا أمي يوم الأحد.

لم تصدق أمي عندما قلتُ لها هذا، فقد سعدتُ كثيرا هي وأبي، الذي جاء على صوتي. كنت أقضي معهما إجازتي الصيفية، التي ستمتد إلى ستة أسابيع.

ضحك أبي، وهو يتمتم:

- توقعتُ هذا منك يا جيفري.
- كيف هذا يا أبي؟
- لقد كانتْ مكالماتك ورسائلك لي كلها تحمل إشارات على التفكر في الدين.

حضرتُ مع أسرتي قداس الأحد ثلاث مرات، وفي المرة الرابعة، أخبرت والديَّ، أنني لن أحضر ثانية، تعجبا، وبانت الصدمة على وجهيهما، وتساءلا:

- لماذا يا بني؟
- كنتُ أُصغي إلى كلمات القس بدقة، ولكنها لم تنفذ لأعماقي، وعندما تطلعت إليكما، وجدت أنكما أيضا غير مصغيين.

- هذا معتاد يا بني، نُصغي بعض الوقت، وهناك شرود أحيانا منا.
- لم أجد سعادة ولا اقتناعا فيما يقوله القس، وأنتما مؤمنان تقليديان فقط.

❊ ❊ ❊

(٣)

تعاقدت مع جامعة سان فرانسيسكو San Francisco، وكان علي الرحيل إلى هذه المدينة الكبيرة والعريقة، لأجد نفسي في خضم المدنية الحديثة، بكل صخبها، وزحامها، وقد قررتُ ساعة وصولي إلى المدينة، أن أعيش ليومي فقط، لن أنظر إلى الماضي، ولا المستقبل، فقد سئمتُ من التذكر، مثلما مللت من التخطيط لما هو قادم، لماذا لا أجرب أن أعيش للحاضر فقط، وليكن ما يكون.

(جامعة سان فرانسيسكو)

وقتي مقسم ما بين محاضراتي في الجامعة، وخروجي اليوم إلى المسرح أو السينما أو الأندية الليلية، حياة جديدة، تخالف حياة الدراسة التي عشتُها في السنوات الماضية. نعم هناك متعة، ولكنها وقتية، قصيرة، سرعان ما تنتهي، وأعود إلى وحدتي، خاصة عندما أجد نفسي ثانية بين جدران الشقة والعزلة، وأترقب طلوع النهار، كي أذهب إلى الجامعة، وأمارس عملي المعتاد.

❊❊❊

ذات مرة، تطرقتُ في محاضرتي إلى بعض المعلومات الطبية، ابتعدت بعض الشيء عن موضوع المحاضرة في الرياضيات، وقد أردتُ اختبار معلومات طلابي في هذه القضية الطبية، فوجدت من يرفع يده، مطالبا المشاركة، وكم كنت مندهشا، من هذا الشاب شديد الأناقة، وقد وقف يتحدث الإنجليزية ببراعة، ويذكر معلومات طبية وفيرة، ثم عرّفني بنفسه:

– أنا محمود قنديل، من المملكة العربية السعودية.

وبعد المحاضرة، عرفت أنه قادم لدراسة الطب، وأنه يدرس عندي الرياضيات بوصفها مادة إجبارية من متطلبات مواد الجامعة الأساسية.

صرنا صديقين، أنا ومحمود، نخرج معا، اكتشفتُ أنه يعرف سان فرانسيسكو أكثر مني، وكأنه واحد من أهلها. أحببت محمود لخفة دمه، وكان الشي الأكثر الذي جذب اهتمامي، هو حرصه الدائم على الصلاة، فهو يتوقف كل سويعات، ليصلي، ومعه بوصلة في ساعة يده، يتحرى بها القبلة التي يتوجه إليها.

كان لزاما أن نتناقش في الدين، كانت إجاباته سريعة، وفي كل مرة كان يقول لي: إنني لست متعمقا في الإسلام كما يجب.

كانت إجاباته القصيرة تشفي غليلي بعض الشيء، حتى كان اليوم الذي دعاني فيه إلى منزله، وكنت قد زرته عدة مرات من قبل، وتعرّفت بشقيقه عمر، الذي كان روحانيا ملتزما بدينه بشكل كبير، وتعرفت أيضا بشقيقته راجية، التي كانت ملتزمة بالحجاب، وثلاثتهم يدرسون في جامعة سان فرانسيسكو، أما

والدتهم فهي تعيش في السعودية، وهم على اتصال دائم بها، إنهم أسرة مترابطة للغاية.

في هذا اليوم، وبعدما تغدّينا معا، وجدت هدية ملفوفة بورق ملون، وخيوط حريرية، يقدمونها لي. شكرتهم كثيرا، ثم دفعني الفضول لأسألهم عما في هذه الربطة المربعة الشكل، فضحكوا وقالوا: افتحها بنفسك، ولكن عندما تعود إلى منزلك.

❊❊❊

عندما فتحت الهدية، تناثر أمامي على الطاولة في المنزل عدد من الكتب، كلها تحمل عناوين بالإنجليزية عن الإسلام، وفي القلب منها كتاب مجلد بغلاف فخم، خمّنت أنه الكتاب المقدس عند المسلمين، وقرأت عليه القرآن الكريم.

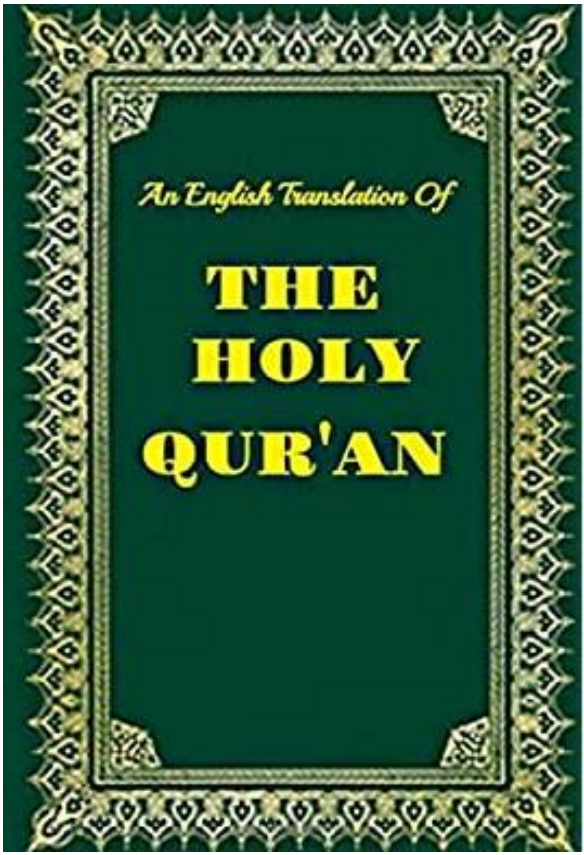

آثرتُ البدء بالقرآن، انجذبت إليه بمجرد تصفحي المبدئي له، الآية القرآنية باللغة العربية، وبجوارها ترجمة بالإنجليزية.

لم أنم ليلتي، بل إنني قضيت نهاري أنهل من هذا الكتاب، الذي شعرتُ أنه يخاطب كل ذرة في كياني، إنه يجادلني لكي أومن بالله

عقلا وبرهانا، فإن لم أقتنع، أجد آية تدعوني للتفكر في الكون، ثم آية أخرى تحضني على مكارم الأخلاق، وآية رابعة تتحدى ذاتي التي كنت أظنها إلهًا يوما، إنني غير قادر أن أخلق ذبابة واحدة، وإن سلبني الذباب شيئا، فأنا غير قادر على استخلاصه منه.

بدا واضحا أن منزل هذا الكتاب وهو الله سبحانه؛ يعرفني أكثر مما أعرف نفسي، وكأن آياته تتوقع حركاتي وسكناتي، بل ويزيل الحواجز التي بنيتها مع نفسي، وجعلتْ في قلبي أوتادا، فصار قلبي الآن خاشعا لله الخالق العظيم.

في كل ليلة، كنت أضع تساؤلات، ثم أشرع في قراءة الترجمة القرآنية، وسرعان ما أجدها تحمل الإجابات عن أسئلتي، وكأن الله يخاطبني مباشرة، واستحضرتُ مقولة الشاعر المسلم محمد إقبال، التي سمعها من والده، عندما قال له: "اقرأ القرآن كأنه يتنزّل عليك". وها أنا أشعر أن ليس بيني وبين الله سبحانه أي حجاب، فكل سؤال في نفسي، سرعان ما يأتيني الجواب. لقد قابلتُ نفسي وجها لوجه في القرآن.

وهكذا، توالت الليالي، وتبدلت أحوال نفسي، زال القلق، وبدتْ راحة غريبة تملأ كياني. وحافظت على جولاتي اليومية، في الحدائق وعلى الشاطئ، أحمل المصحف بيدي، وأشرع في تقليب صفحاته، وأستعيد ما قرأت مرات، لأجد إشعاعا جديدا يضاف لي في كل مرة، إنه بالفعل مشكاة (سراج)، لا ينتهي ضياؤها، ولا ينضب زيتها.

❊ ❊ ❊

لابد أن أحاور أحدا ما، لن يكون فردا من أسرة محمود قنديل، لابد أن أناقش عقلا جديدا.

كنت في يوم السبت، خلال نزهتي اليومية في حديقة البوابة الذهبية غولدن غيت العامة Golden Gate Park، وقد توصلتُ إلى حل، وهو الذهاب إلى المسجد المحلي للطلاب في الجامعة، وسيكون يوم الاثنين بعد غد.

(حديقة جولدن غيت بارك)

صبيحة الاثنين، كنت أقف بجوار كنيسة القديس إغناطيوس، التي هي مصدر فخر عظيم لجامعتنا، كان الجو صحوا، وكثير النسمات، وقفت خارج مركز هارني للعلوم Harney Science Center، حيث يقع مكتبي، حدّقت في الكنيسة طويلا، ثم تحركتْ عيناي إلى المسجد الصغير الذي يقع في قبو خلفها.

كنت أعلم أن المسجد عبارة عن غرفة صغيرة، سمح اليسوعيون للطلاب المسلمين أن يتخذوها مسجدا، وهي في الحقيقة ملحقة بمبنى الكنيسة في الخلف.

قررت الذهاب إلى المسجد، وسلكتُ طريقا يمر بالكنيسة، حيث أتذكر كلام أحد الطلاب، كان يسير بجانبي يوما، وأشار ساخرا إلى أن هذا القبو، فيه مسجد المسلمين، وأن الإشاعة تقول إنهم يحفظون جثث موتاهم في هذا المسجد.

كنتُ في أعلى الدرج، ونظرتُ إلى حيث كان باب المسجد، مكتوبا عليه كلمات باللغة العربية، ذكّرتني على الفور بآيات المصحف. بدأتُ نزول الدرج، صدري يرتج بي، وازداد خفقان قلبي، فكرتُ في الرجوع وتأجيل الزيارة ليوم آخر، ولكن تعجبت من نفسي، وأنا الذي أسير كل يوم سبعة أميال، ولن أقابل في هذا المسجد إلا طلاب الجامعة، الذين أدرّس لبعضهم دون شك.

قدماي ضعيفتان، ويداي مرتعشتان، وأنا أمسك بمقبض الباب، فاشتد ارتجافي، وتصببتُ عرقا، ثم ركضت إلى أعلى الدرج ثانية، وأوليتُ المسجد ظهري، شاعرا بالحرج والهزيمة، نظرتُ خلالها إلى السماء، فوجدتها هائلة، مليئة بالأسرار، مطمئنة. لقد مضتْ عشر سنوات وأنا أمنع نفسي من الدعاء، والآن، وفي هذه اللحظة، وجدت لساني ينطلق:

– اللّٰهُمَّ إن كنتَ تريدني أن أنزل هذا الدرج إلى المسجد، فامنحني القوة.

انتظرتُ قليلا، لم أشعر بشيء، كنتُ آمل أن تهتز الأرض تحت قدميّ، أو تنزل صاعقة فتحيط بي، أو حتى أن تنتابني القشعريرة، ولكن لم يحدث شيء، فاستدرت مئة وثمانين درجة، وصار المسجد أمام عيني، ونزلت الدرج بثبات، وفتحت مقبض الباب، ودفعته فانفتح، ودخلت.

كان في الداخل شابان قصيران يتحدثان، حافيي الأقدام، الأول كان يرتدي جلبابا شرقيا، وعلى رأسه قلنسوة، والثاني كان يلبس زيا غريبا.

– أهلا بك.. هل تريد شيئا.

نطق الشاب الذي كان يلبس زيا تقليديا، وهو ينظر لي بحبور.

قلت لهما:

– أبحث عن محمود أو عن أخيه عمر..

ونسيتُ اسم والدهما (قنديل)، لقد كنت مرتبكا، غاية الارتباك.

- نحن لا نعرف من هما تحديدا.
- يبدو أنني جئتُ في المكان الخطأ، أعتذر منكما، سأنصرف.

نظر لي الشاب وقال:

- هل تريد أن تعرف بعض المعلومات عن الإسلام؟

وكأنه يقرأ ما في نفسي، فأحنيتُ رأسي موافقا. فقال:

- أرجو أن تخلع حذاءك خارج المسجد، لأن هذا مكان طاهر، نحن نصلي فيه.

عدتُ أدراجي، وخلعتُ حذائي، وجلسنا نحن الثلاثة في أحد أركان المسجد، في الزاوية اليسرى منه. كان الشاب ذو الجلباب يحدثني، فيما كان الآخر ذو الملابس الغريبة يراقبني صامتا، وقد ظهر من تعابير وجهه أنه غير عادي.

تأملتُ المسجد، هناك غرفة هي مغسلة على يميني، وهناك غرفة صغيرة جدا مخصصة للنساء بعيدة إلى اليسار عن شمالي.

تعرّفنا، الشاب الأول اسمه عبد الحنّان من ماليزيا، والثاني اسمه محمد يوسف من فلسطين، تحدثنا خمس عشرة دقيقة، دهشا من معلوماتي عن الإسلام، التي استقيتها من القرآن مباشرة، ومن الكتب الإسلامية الأخرى التي أُهديتْ لي.

وعندما قررتُ المغادرة، وجدت باب المسجد ينفتح، ويدخل رجل مهيب الطلعة، كان هو الإمام الذي يصلي بالناس، وله لحية مهذبة. عرفت أن اسمه غسّان.

تناقشنا كثيرا في الملائكة، وفي الرسول محمد، وفي أخلاق المسلم، ثم سكتُ، وهممت بالانصراف، إلا أن غسان استوقفني قائلا:

– هل لديك أي سؤال آخر تود معرفة الإجابة عنه؟

هززت رأسي نفيا، ثم تذكرت سؤالا:

– أخبرني، كيف يشعر المرء إن كان مسلما؟ كيف ترى علاقتك مع الله؟

هزّ غسان رأسه، وكأنه يتأهب بالكلام، ثم هتف:

- الله، إنه عظيم جدا، ونحن بالنسبة له لا شيء، نحن أقل من ذرة تراب واحدة.

ثم أشار بسبابته وإبهامه، وكأنه يحمل ترابا، ثم نفخ فيه وطار من إصبعيه.

- إن محبة الله لنا يا بروفيسور لانغ أكثر من حب الأم لولدها. وكل شيء نفعله بمشيئته، حتى الزفير والشهيق، ونبضات القلب.

أنصتُ له، ومشاعري في شوق إلى المزيد، فالسكينة التي تملأ صدره، وتتجلى في كلماته لا يمكن وصفها.

- هل تريد أن تكون مسلما؟

باغتني السؤال، فلم أدر إلا وأنا أقول مرتبكا:

- جئت فقط للتعرف على الإسلام.
- لماذا لا تجرب الإسلام؟

تذكرتُ مقولة أمي، وهي توصيني: إن أردت الراحة، فاتبع مشاعرك. فتهلل وجهي، وعرفوا أنني قاب قوسين من الإيمان.. وكأن أبواب الجنة أمامي.

طلب غسان أن أتلو وراءه، وارتفع صوته مرددا الشهادة بالعربية، وأنا أتلعثم فيها، حتى نطقتها كاملة، وساعتها مُحيَ التوتر من قلبي، وتبدل القلق هدوءا.

❋❋❋

في الأيام التالية، أغدو إلى المسجد، فأتعلم المزيد من الصلوات، وأؤديها معهم في جماعة، سمعت القرآن مرتلا، ورأيت حركات المصلين منظمة، وهم يقفون في صفوف متتالية. إنني في عالم من الضياء، نظرتُ إلى موضعي، كنت في الصف الثالث، وقد ظهرت ملامح المصلين حولي، شباب من أكثر من عشرين بلدا، مختلفو الوجوه والسحنات، متعددو الألوان: الأبيض والأسود والحنطي. نقف، ونركع ونسجد ونجلس. تطلعت إلى ضوء الشمس المتسرب من نافذة صغيرة أمامي، والإمام يرفع صوته بالتكبير، وأنا أردد خلفه.

يا له من حلم يتحول الآن إلى حقيقة، وقد بانت الوجوه الغامضة، ورأيت الغرفة التي عشتها في أحلامي متجلية أمامي: السجادة ذات اللونين الأبيض والأحمر، والإمام ذا القلنسوة المخطوطة بالأحمر، والجلباب الأبيض الذي يلبسه، وكلنا نصلي بقلوبنا، وتلهج ألسنتنا

بالدعاء، وأدركت أن معرفة الله، لن تكون بأدلة وبراهين فقط، وإنما بما يستقر في النفس من هداية وإيمان وسكينة.

❊ ❊ ❊

الاسم: أ. د. مصطفى عطية جمعة

أستاذ الأدب العربي والبلاغة والنقد الأدبي،

وباحث في الإسلاميات والحضارة، وقاص وروائي ومسرحي.

الأعمال المنشورة:

أولا: الدراسات الأدبية والنقدية:

١) دلالة الزمن في السرد الروائي، نقد، جائزة النقد الأدبي، الشارقة، ٢٠٠١.

٢) أشكال السرد في القرن الرابع الهجري، نقد، مركز الحضارة العربية، القاهرة، ٢٠٠٦

٣) ما بعد الحداثة في الرواية العربية الجديدة (الذات، الوطن، الهوية)، مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ٢٠١٠، وكالة الصحافة العربية، القاهرة،ط٢، ٢٠٢٣.

٤) الرؤية والأداة: في جماليات المكان والزمان والتأويل، وكالة الصحافة العربية، ناشرون، القاهرة، ٢٠٢٣، وصدرت طبعته الأولى بعنوان اللحمة والسداة، نقد أدبي، سندباد للنشر، القاهرة، ٢٠١٠.

٥) شعرية الفضاء الإلكتروني في ضوء ما بعد الحداثة، نقد أدبي، دار شمس، القاهرة، ٢٠١٦.

٦) الظلال والأصداء، نقد أدبي، دار شمس للنشر والمعلومات، القاهرة، ٢٠١٥م

٧) الوعي والسرد، دار النسيم للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠١٦م.

٨) السرد في التراث العربي (رؤية معرفية جمالية)، دائرة الثقافة والإعلام، الشارقة، ٢٠١٧م، ووكالة الصحافة العربية ناشرون، القاهرة، ط٢، ٢٠٢٣.

٩) القرن المحلق (الرواية الإفريقية وأدب ما بعد الاستعمار)، منشورات جائزة الطيب صالح العالمية، الخرطوم، ٢٠١٧م، وكالة الصحافة العربية، القاهرة، (ط٢)، ٢٠٢٣.

١٠) عضو فريق التأليف في كتاب: التأريخ واشتغال الذاكرة في الرواية العربية، ببحث عنوانه: تمثيل التاريخ العربي وإشكالات التأريخ في الرواية التاريخية، منشورات كتارا للرواية العربية، قطر، العام ٢٠١٩م.

١١) التحيز في المسرح العربي: قراءة في الجذور والنشأة والنصوص والتجارب، في كتاب محكم جماعي بالاشتراك: تلغيم الفن: المسرح بوصفه

ساحة للتحيزات، منشورات دار نور حوران، دمشق، سورية، إبريل ٢٠١٩م.

١٢) الفصحى والعامية والإبداع الشعبي، دار شمس للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١٩م.

١٣) أصداء ما بعد الحداثة: في الشعرية والفن والتاريخ، دار شمس للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١٩م.

١٤) شرنقة التحيز الفكري: أنماط وتجليات ودراسات، دار شمس للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١٩م.

١٥) البنية والأسلوب: دراسات نقدية، دار شمس للنشر والمعلومات، القاهرة، ٢٠٢٠

١٦) المعجمية العربية: قراءة حضارية في ضوء الأنثروبوجيا الثقافية. دار المثقف للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٢٣.

١٧) الرواية العربية: قضايا الإنسان والهوية: إشكالية الريف والمدينة نموذجا، دار المثقف للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٢٤.

ثانيا: الإسلاميات والحضارة:

١٨) هيكل سليمان (المسجد الأقصى وأكذوبة الهيكل)، ط١، دار الفاروق للنشر، القاهرة، ٢٠٠٨م. ووكالة الصحافة العربية ناشرون، القاهرة، ط٢، ٢٠٢٣.

١٩) فلسفة الرحمة في شخصية الرسول (ص)، ط٢، وكالة الصحافة العربية ناشرون، القاهرة، ٢٠٢٣، وصدرت الطبعة الأولى بعنوان: الرحمة المهداة، خلق الرحمة في شخصية الرسول (ص)، إسلاميات، مركز الإعلام العربي، القاهرة، ٢٠١١ م،

٢٠) الحوار في السيرة النبوية، إسلاميات، دار شمس للنشر والمعلومات، القاهرة، ٢٠١٥م

٢١) الإسلام والتنمية المستدامة، دار شمس للنشر والمعلومات، القاهرة، ٢٠١٦م.

٢٢) منهج الرسول (ﷺ) في إدارة الأزمات، إسلاميات، دار شمس للنشر والإعلام، القاهرة، ٢٠١٨م.

٢٣) وسطية الإسلام في حياتنا الفكرية: قضايا التجديد والثقافة والمعاصرة، إسلاميات، دار شمس للنشر والمعلومات، القاهرة، ٢٠٢٠.

٢٤) الحكم الراشد: رؤية إسلامية حضارية، دار شمس للنشر والمعلومات، إسلاميات، القاهرة، ٢٠٢٠.

٢٥) صورة الرسول (صلى الله عليه وسلم) في الوجدان الغربي: أبعاد التجني، براهين التفنيد، الكتاب الفائز بالجائزة الأولى في المسابقة الدولية بمنصة أريد البحثية الدولية ARID Platform، ماليزيا، ديسمبر ٢٠٢٠.

٢٦) المثاقفة والتواصل: حوار الذات وحوار الحضارات، وكالة الصحافة العربية، ناشرون، القاهرة، ٢٠٢٢.

٢٧) الطفولة والهوية والتغريب: إشكاليات النسوية والجندرية، وكالة الصحافة العربية، ناشرون، القاهرة، ٢٠٢٢.

٢٨) أسئلة الحضارة والنهضة: إضاءة على الفكر التنويري والحداثة الإسلامية، وكالة الصحافة العربية، ناشرون، القاهرة، ٢٠٢٣.

٢٩) التطبيع الصهيوني العربي شفرات الخداع والتدليس، منشورات مركز الشرق للأبحاث والثقافة (ECR)، ٢٠٢٣.

ثالثا: الإبداعات الأدبية:

٣٠) وجوه للحياة، مجموعة قصصية، نصوص ٩٠، القاهرة، ١٩٩٧م

٣١) نثيرات الذاكرة، الجائزة الأولى في الرواية، دار سعاد الصباح، القاهرة / الكويت، ١٩٩٩م.

٣٢) شرنقة الحلم الأصفر، رواية، جائزة الرواية عن نادي القصة، بالقاهرة، ٢٠٠٢، نشر: مركز الحضارة العربية،٢٠٠٣م.

٣٣) طفح القيح، مجموعة قصصية، مركز الحضارة العربية، القاهرة، ٢٠٠٥م.

٣٤) أمطار رمادية، مسرحية، مركز الحضارة العربية بالقاهرة، ٢٠٠٧م.

٣٥) نتوءات قوس قزح، رواية، سندباد للنشر، القاهرة، ٢٠١٠.

٣٦) مقيم شعائر النظام، مسرحيات، دار الأدهم للنشر، القاهرة، ٢٠١٢م.

٣٧) قطر الندى، مجموعة قصصية، دار شمس للنشر والمعلومات، القاهرة، ٢٠١٣م.

٣٨) على متن محطة فضائية، رواية للأطفال، منشورات مكتب التربية لدول الخليج العربي، الرياض، ٢٠١٢م.

٣٩) سفينة العطش، مسرحية للأطفال، منشورات مكتب التربية لدول الخليج العربي، الرياض، ٢٠١٢م.

٤٠) أصدقاء في عالم الفضاء، رواية للفتيان، وكالة الصحافة العربية، ناشرون، القاهرة، ٢٠٢٣، ط٢، وصدرت الطبعة الأولى بعنوان: رواد فضاء الغد، أطفال، منتدى الأدب الإسلامي، الكويت، ٢٠١٤م.

٤١) لكل جواب قصة، مسرحيات للأطفال، منتدى الأدب الإسلامي، الكويت، ٢٠١٤م.

٤٢) سوق الكلام، مسرحيات، دار النسيم للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠١٧م.

٤٣) حدث مألوف، قصص قصيرة جدا، دار شمس للطبع والنشر، القاهرة، ٢٠٢٣.

٤٤) جزيرة الفئران، مسرحيات للأطفال واليافعين، دار المثقف للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٢٣.

٤٥) الحسن بن علي، رواية للأطفال واليافعين، دار المثقف للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٢٣.

٤٦) البرتقالة في الزجاجة، مجموعة قصصية للأطفال واليافعين، دار المثقف للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٢٣.

٤٧) صندوق الألعاب، مجموعة قصصية للأطفال، دار المثقف للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٢٣.

٤٨) الفقر مقتولا: قصة البروفيسور محمد يونس وحربه ضد الفقر في بلاده، قصة للفتيان، دار المثقف للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٢٤.

٤٩) النسيم والهجير، رواية، دار المثقف للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٢٤.

٥٠) رحيق الألم: قصة حياة "لي ميونغ باك" رئيس كوريا الجنوبية، رواية للفتيان، دار المثقف للنشر والتوزيع، القاهرة ٢٠٢٤.

٥١) المتسابقون للفردوس، مسرحيات للفتيان، دار المثقف للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٢٤.

٥٢) كنتُ ملحدًا: سيرة العالم الأمريكي جفري لانغ، قصة للفتيان، دار المثقف للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٢٤.

❊ ❊ ❊

كنتُ ملحداً..

سيرة العالم الأمريكي جيفري لانغ

قال البروفيسور "جيفري لانج" لبناته: "سأحكي عن فترة إلحادي، ولكن لابد أن تعرفن يا بناتي الثلاث الجميلات، أنني آمنتُ بالإسلام ليس لي فقط، وإنما من أجلكن أنتن أيضا، كي لا تسقطن في الحيرة والاضطراب النفسي الذي سقطتُ أنا فيه، وتكون حياتكن -ثم مستقبلكن مع أبنائكن وأزواجكن- هنيئة سعيدة، بعدما اطّمأننتم على أن أفئدتكن مؤمنة باللّه الواحد الأحد، الفرد الصمد".